١٠- النصوص الموهمة للتشبيه

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

٣٠- وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيهَا أَوِّلْهُ أَوْ فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيهًا

وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية بعض الصفات التي يوهم ظاهرها التجسيم والتشبيه، واتصاف اللَّه تعالى بصفةٍ من صفات المخلوقين مثل: اليد والمجيء والاستواء والنزول والوجه وغير ذلك من الصفات التي دل عليها القرآن الكريم في آيات أو دلت عليها السنة المطهرة.

يجب قبل الخوض في شرح هذا الموضوع بيان المراد من النص، ومن التشبيه، والمراد من التفويض، والمراد بالسلف، والمراد بالخلف، ثم بيان ما اتفق عليه الفريقان، وما انفرد به أحدهما.

أما النص: فالمراد به في هذا الموضع ما قابل الإجماع والقياس وهو منحصر في الدليل من الكتاب والسنة، سواءً أكان صريحًا أم ظاهرًا.

والمراد من التشبيه في هذا الموضع: المشابهة للحوادث.

والمراد من التأويل هنا: حمل اللفظ على خلاف ظاهره، مع بيان المعنى المراد فيكون المطلوب من المكلف أمرين: أحدهما: أن يحكم بأن اللفظ مصروف عن ظاهره، وثانيهما: أن يؤوّل اللفظ تأويلًا تفصيليًّا، بأن يكون فيه بيان المعنى الذي يظن أنه المقصود من اللفظ.

والمراد من التفويض: صرف اللفظ عن ظاهره مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه، بل يترك ويفوض علمه إلى اللَّه -تعالى- بأن يقول: اللَّه أعلم بمراده.

والمراد من السلف: هم من كانوا من أهل العلم قبل نهاية القرن الثالث الهجري وهم الصحابة والتابعون والأئمة الأربعة وكبار علماء مذاهبهم.

والمراد بالخلف من كان من العلماء بعد نهاية القرن الثالث الهجري.

واعلم أن السلف والخلف متفقون على التأويل الإجمالي، وهو صرف النص الموهم للتشبيه عن ظاهره بسبب أن ظاهره بحسب معناه اللغوي المعروف المشاهد محال عليه -تعالى- لكنهم مختلفون فيما وراء ذلك من التعرض لذكر المعنى المراد من النص، فالسلف لا يتعرضون لبيانه، والخلف يتعرضون لبيانه.

وطريقة الخلف أعلم وأحكم، لما فيها من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم، وهي الأرجح، ولذلك قدمها المصنف، وطريقة السلف أسلم لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى.

تأويل الصفات الموهمة للتشبيه:

منهج المثبتين والنافين للتأويل في النصوص الموهمة للتشبيه:

السلف - رضوان اللَّه عليهم - كانوا ينزهون اللَّه تنزيها تامًّا عن أن يشابه أحدا من مخلوقاته، ثم يفوضون إلى اللَّه تعالى علم المعنى المراد من الآيات التي جاءت في الصفات، والتي قد يوهم ظاهرها التجسيم والتشبيه، فهم آمنوا بما جاء في القرآن والسنة، وأثبتوا للَّه ما أثبته لنفسه مع تنزيهه تعالى عن المعاني الظاهرة، وكانوا يقولون كما قال الإمام الشافعي: (آمنت بما جاء عن اللَّه على مراد اللَّه، وبما جاء عن رسول اللَّه على مراد رسول اللَّه ﷺ).

هذا هو فهم السلف للنصوص التي توهم التجسيم والتشبيه، أمنوا وأمروها وأقروها كما وردت، واكتفوا من تفسيرها بمجرد تلاوتها.

وهذا هو معنى التفويض عند السلف كما فهمه الأشاعرة والماتريدية، الذي ينتهي إلى إثبات النصوص مع تفويض المعنى المتبادر منها إلى اللَّه تعالى، لكن هذا الفهم لا يرضى به ابن تيمية وابن قيم الجوزيه وأتباعهما، إذ أنهم يرون أن هذا تجهيل للصحابة والتابعين ومن تبعهم، ويرون أن الصحابة كانوا يعلمون معنى هذه الألفاظ، ويعلمون المراد منها، لكنهم يفوضون في الكيفية، لا تفويض المعنى، وبهذا يرى ابن تيمية أن النصوص الموهمة للتجسيم والتشبيه ليست من المتشابه بل هي من المحكم المعلوم المعنى فالاستواء واليد والعين والجنب والوجه إلخ.. صفات لها معان ثابتة ومعلومة ولابد من إجرائها على ظاهرها وبمعناها المتبادر منها لكن يقول بعد إثباتها بلا كيف، ولابد من وصف اللَّه تعالى بها كما وصف نفسه بها، وتفويض كيفيتها إلى اللَّه تعالى. وهو بهذا يرفض التأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره رفضا مطلقا حتى وإن لزمه التجسيم.

وهذا المنهج من ابن تيمية غير صحيح لأن تفويض السلف للنصوص التي قد توهم التجسيم والتشبيه ليس تجهيلا لهم، بل هم رضوان اللَّه عليهم يفهمون معانيها البشرية، لكنهم تورعوا عن وصف الذات الإلهية بها وإسنادها إليها تأدبًا معها. فأولوها تأويلًا إجماليًّا، ولم يحددوا معنى معين بل فوضوا المعنى المراد منها للَّه تعالى.

وإثبات ابن تيمية للنصوص الموهمة للتشبيه يترتب عليه إلزامات كثيرة، مؤداها أنه يلزمه التجسيم والتشبيه.

وقوله : إن السلف يفوضون في الكيف ليس صحيحا ، لأنه يلزم من هذا القول إثبات الكيف، وهو من مقولة الأعراض، والأعراض حادثة، وهي لا تقوم إلا بالأجسام الحادثة، وهذا يقتضي أن تكون الذات الإلهية جسما من الأجسام الحادثة، تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا.

ثم إن إثباته للمعنى الظاهر وقوله بلا كيف يوقعه في التناقض، ذلك أن إثبات المعنى المتبادر من النصوص الموهمة يعني التكييف، أي تشبيهه تعالى بصورة ما ، وكلمة بلا كيف تناقضه ، فكأنه قال كيف ولا كيف ، وهذه الإلزامات لا تلزم السلف بحال من الأحوال، إذ إنهم قرأوا النصوص الموهمة، وأمروها دون بحث في معناها ، ولا تلزم الأشاعرة والماتريدية، إذ إنهم صرفوا هذه النصوص عن ظاهرها ، فكان هدفهم الأول هو التنزيه بواسطة العقل في فهم النصوص الموهمة للتجسيم والتشبيه.

والأشاعرة والماتريدية، يأخذون بمنهج السلف «التفويض» ولكنهم يزيدون عليه تعيين المعنى المراد إذا دعت الضرورة لذلك، يمعنى أنه إذا وجد تشبيه فلابد من التأويل ، فكأن التشبيه داء والتأويل دواءه ، فهم ينزهون اللَّه عز وجيل عن التجسيم والتشبيه ، وهم يعتبرون أنفسهم امتدادا لمذهب السلف رضوان اللَّه عليهم، وهم ما أخذوا بالتأويل إلا لظهور التشبيه في البيئة الإسلامية بعد عصر السلف رضوان اللَّه عليهم.

والحاصل أنه إذا ورد في القرآن، أو السنة ما يشعر بإثبات الجهة، أو الجسمية، أو الصورة، أو الجوارح، فقد اتفق أهل الحق من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ما عدا المجسمة والمشبهة على تأويل ذلك لوجوب تنزيهه -تعالى- عما دل عليه ما ذكر بحسب ظاهره.

فمما يوهم الجهة قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] فالسلف يقولون: فوقية لا نعلمها، والخلف يقولون: المراد بالفوقية التعالي في العظمة، فالمعنى يخافون أي: الملائكة ربهم من أجل تعاليه في العظمة أي: ارتفاعه فيها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فالسلف يقولون: استواء لا نعلمه، والخلف يقولون: المراد به الاستيلاء والملك كما قال الشاعر:

قَدْ اسْتَوَى بِشْرُ عَلَى الْعِرَاقِ   مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وسأل رجل الإمام مالكًا عن هذه الآية فأطرق رأسه مليًّا ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالًا، فأمر به فأخرِج.

وسأل الزمخشري الغزالي فأجابه بقوله: إذا استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أَيْنِيَّة، فكيف يليق بعبوديتك أن تصفه -تعالى- بأين، أو كيف وهو مقدس عن ذلك؟

ومما يوهم الجسمية قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وحديث الصحيحين: «ينزل ربُّنا كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير، ويقول: من يدعوني، فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني، فأغفر له». فالسلف يقولون: مجيء ونزول لا نعلمها، والخلف يقولون: المراد: وجاء عذاب ربك، أو أمر ربك الشامل للعذاب، والمراد: ينزل ملك ربنا، فيقول عن اللَّه . . . إلخ.

ومما يوهم الصورة ما رواه أحمد والشيخان أن رجلًا ضرب عبده،

فنهاه النبي ﷺ، وقال: (إن اللَّه تعالى خلق آدم على صورته) [متفق عليه] فالسلف يقولون صورة لا نعلمها، والخلف يقولون: المراد بالصورة الصفة من سمع وبصر وعلم وحياة، فهو على صفته في الجملة، وإن كانت صفته تعالى قديمة وصفة الإنسان حادثة، وهذا بناء على أن الضمير في صورته عائدًا على اللَّه -تعالى- كما يقتضيه ما ورد في بعض الطرق (فإن اللَّه خلق آدم على صورة الرحمن)، وبعضهم جعل الضمير عائدًا على الأخ المصرح به في الطريق التي رواها مسلم بلفظ (فإذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه، فإن اللَّه خلق آدم على صورته) [متفق عليه] أي: وإذا كان كذلك فينبغي احترامه باتقاء الوجه.

ومما يوهم الجوارح قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] و﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ٢] وحديث: (إن قلوب بني آدم كلها كقلب واحد بين إصبعين من أصابع الرحمن) [أخرجه مسلم] فالسلف يقولون: لله وجه ويد وأصابع لا نعلمها، والخلف يقولون: المراد من الوجه: الذات، وباليد: القدرة، والمراد من قوله: (بين إصبعين من أصابع الرحمن) بين صفتين من صفاته، وهاتان الصفتان: القدرة والإرادة.



١١- تنزيه القرآن الكريم عن الحدوث

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣١- وَنَزِّهِ القُرْآنِ أَيْ: كَلامَه   عَنِ الحُدُوثِ واحْذَرِ انْتِقَامَه

يجب على المكلف تنزيه القرآن عن الحدوث؛ خلافًا للمعتزلة القائلين بحدوث الكلام، زعمًا منهم أن من لزومه الحروف والأصوات، وذلك مستحيل عليه -تعالى-، فكلام اللَّه تعالى عندهم مخلوق؛ لأن اللَّه خلقه في بعض الأجسام.

ومذهب أهل السنة أن القرآن بمعنى الكلام النفسي: أي: الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى التي ليست بحرف ولا صوت، ليس بمخلوق وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق، لكن يمتنع أن يقال: القرآن مخلوق ويراد به اللفظ الذي نقرؤه إلا في مقام التعليم؛ لأنه ربما أوهم أن القرآن مخلوق، ولذلك امتنعت الأئمة من القول بخلق القرآن.

محنة القول بخلق القرآن الكريم

وقد وقع في ذلك امتحان كبير لعدد كبير من علماء السنة. فخرج البخاري فارًّا وقال: اللهم اقبضني إليك غير مفتون، فمات بعد أربعة أيام. وسجن عيسى بن دينار عشرين سنة، وسئل الشعبي فقال: أما التوراة والإنجيل والزبور والفرقان فهذه الأربعة حادثة، وأشار إلى أصابعه، فكانت سبب نجاته، واشتهرت أيضًا عن الإمام الشافعي، وحبس الإمام أحمد وضرب بالسياط حتى غشي عليه.

تعريف القرآن الكريم:

هو اللفظ المنزل على نبينا محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه، والمحقق أن المنزل اللفظ والمعنى؛ لأن اللَّه كتبه أولًا في اللوح المحفوظ، ثم أنزله في صحائف إلى سماء الدنيا في محل يقال له: (بيت العزة) في ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. ثم أنزله على النبي ﷺ مفرقًا بحسب الوقائع.

وفي النهاية كل ظاهر من الكتاب والسنة دلَّ على حدوث القرآن فهو محمول على اللفظ المقروء لا على الكلام النفسي، لكن يمتنع أن يقال: القرآن مخلوق إلا في مقام التعليم كما سبق.



المناقشة

س١: قال الناظم رحمه الله:

واختير أن أسماه توفيقية ....

اشرح البيت السابق شرحًا موجزًا.

س٢: سلك العلماء في فهم النصوص الموهمة للتشبيه مسالك شتى. وضح مذاهب العلماء في ذلك.

س٣: ما الفرق بين التأويل والتشبيه؟ وأي المنهجين أولى بالقبول؟